عمر فاخوري

١٨٩٥ – ١٩٤٦

تميَّز عمر فاخوري عن كثيرين من أبناء جيله من أدباء ومفكِّري العقدين الأولين من القرن العشرين بأنه التقط منذ شبابه الباكر فكرة النهضة، وألَّف فيها كتابه الأول "كيف ينهض العرب" (١٩١٣). ولم يكن حين ألَّف كتابه ذاك قد بلغ الثامنة عشرة من عمره. وكاد، لدى صدور كتابه، أن يلحق بقافلة الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا السفاح في عام ١٩١٥ في ساحة البرج في بيروت وفي ساحة المرجة في دمشق، لولا جملة من التدابير اتخذها والده وبعض وجوه العائلة. واستندوا في الدفاع عنه إلى كونه لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من العمر، السن التي يصبح فيها المواطن مسؤولاً عن تصرفاته ويخضع لحكم القوانين.

صدر الكتاب في عام ١٩١٣، عشية نشوب الحرب العالمية الأولى. وهي فترة كانت فيها الحركة الاستقلالية العربية قد بلغت أوجها في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في ذلك العام في باريس. وكان عمر يواكب تلك الحركة التي كانت قد بدأت كرد فعل على عملية التتريك التي رافقت قيام الحركة الدستورية في السلطنة العثمانية. ورغم أنني لم أعثر على ما يشير إلى أن عمر فاخوري تأثَّر مباشرة بفكر النهضة العربية الذي كان القرن التاسع عشر مهدها، فإنني أكاد أجزم بأن عمراً كان في أعماق أحاسيسه القومية والنهضوية متأثراً بحركة النهضة تلك متواصلاً معها ومواكباً ومكملاً لمسيرتها في كتاباته. وكانت تهيء منذ وقت مبكر الشروط له الأوضاع الجديدة في العالم العربي التي كانت قد بدأت تبرز معالمها عشية الحرب العالمية ثم تكرست في نهاية تلك الحرب. وكان ذلك الكتاب المشار إليه بداية في مسيرة عمر الأولى التي جعلت منه واحداً من كبار الأدباء العرب، الذين تحولت كتاباتهم إلى مواد للتدريس في المدارس والمعاهد في البلدان العربية. ورغم أن عمر لم يعش طويلاً إلا أنه ترك للأجيال القادمة في سيرته وفي كتبه تراثاً غنياً. وقد أثار غيابه المبكر إثر مرض استعصى علاجه، دوياً في الأوساط الأدبية العربية. وكان عميد الأدب العربي طه حسين من أكثر الذين أحزنهم غيابه المبكر. فكتب في مجلة "الكاتب المصري" التي كان يصدرها كلمة مؤثرة أقتطف منها السطور

التالية:"... وقد أنفقنا في بيروت يومين لقينا فيهما من أهل لبنان ما تعوّدنا أن نلقى من هذه الضيافة الحلوة المرحة الخصبة التي تشعر الضيف بأنه ليس ضيفاً، وإنما هو رجل يعيش في وطنه وبين أهله، لا يجد في ذلك مشقة ولا جهداً، ذلك إلى هذا المتاع العقلي الذي يجده المصري المثقف حين يلقى اللبنانيين المثقفين. وقد كادت هذه الزيارة تكون صفواً كلها، لولا أنني سألت عن صديق لبناني أديب كانت له في نفسي كما كانت له في نفوس الأدباء الشرقيين جميعاً مكانة ممتازة. سألت عنه لأني كنت أريد أن أسمى إليه. قلت لصاحبي: كيف حال الأستاذ عمر فاخوري؟ فقال في هدوء حزين: لقد دفنّاه أمس يا أستاذ. هنالك أخذ الندي كله وجوم طويل لم نقل في أثنائه شيئاً. وإنما قالت قلوبنا في أثنائه كل شيء. وما عسى كنا نستطيع أن نقول، وقضاء الله أقوى وأمضى وأصرم من أن نملك أمامه شيئاً غير السكوت والإذعان. وهذا الحزن هو الذي يفني القلوب، ويضاعف ثروة العقول. ولم أقل شيئاً ولم يقل أصحابي شيئاً، وإنما اتخذت لهذا الأديب اللبناني العظيم قبراً في ناحية من نواحي قلبي، كما اتخذ اللبنانيون له قبوراً في قلوبهم، وكما احتفروا له قبراً في مكان ما من أرض لبنان".

وكتب ميخائيل نعيمة يقول:" ما كانت عقيدة عمر من النوع المنقول بالعدوى. بل كانت وليدة تفكير عميق، وحساب دقيق، وتأمل منزَّه عن الهوى في حياة الناس والتفاوت العظيم بين حظوظهم، ولا كانت حماسته لها حماسة المتهوس والمغامر، أو حماسة المنجرف بالتيار، بل كانت حماسة العاقل المتزن، وحماسة تمتطي التيار إلى هدفها ولا يمتطيها التيار. لئن لجم الموت قلم عمر وعقل لسانه، فهو ما لجم عقيدته ولا عقل حماسته. فالاثنتان ما تزالان تجريان في دماء الكثير وعروقهم من أبناء اللغة التي أحبَّها عمر وأحبَّته والتي تعتز بقلم أنيق وصادق ودقيق كقلمه".

وكتب مارون عبود يقول:" إنَّ كيد ابتسامته لعظيم، فهي شكته أديباً ناقداً، في "الباب المرصود" و"الفصول الأربعة". وهي عتاده، كاتب نضال في "أديب في السوق" و"الحقيقة اللبنانية" و"لا هوادة".

إنها لفي كل مكان، تتحدث بنعمة رب عمر على الأدب. وإن آسف، فما آسف إلاَّ على الحوار الذي جرى بينه وبين منكر ونكير... أترى فعلت ابتسامة عمر فعلها هناك فأضاءت تلك العتمة الضيِّقة... عتمة القبر. من الخير أن نفي هذه الابتسامة الشاحبة حقها من التصوير. فقد كانت تشع في العينين والجفون والأنف والفم، حتى تخالها تطل عليك من شرفات الحاجبين. إنها موزعة في جميع قسمات الوجه. ولكنها في كل مكان أبرز منها في مكانها، أي الفم. فقلَّما كان ينشق انشقاق القمر!".

وكتب سعيد عقل يقول:" عمر فاخوري كنَّا نُسميه "الكبير". وكان يجمع عليها . وكأنها خرجت من أفواه الكل . فؤاد البستاني، ميشال شيحا، أمين نخلة، يوسف غصوب، صلاح لبكي، جورج شحادة، عبد الله العلايلي وأنا. ذلك أن قلم عمر ينتقل، براحة ولا أمرَن، بين اللغتين اللتين كنا نُنتج بهما. كان عمر خبيرنا الأعمق لا بهما وحسب، بل كذلك بكل شياتهما. والشيّة هي الفارق داخل اللون الواحد".

وكان شاعر القطرين، لبنان ومصر، خليل مطران قد أهداه في عام ١٩٤٢ قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات:

حق لبنـــان أن فخر   بـارك الله في عمـر

هو والوحـي ســـاهر   والدجى تبعث الفكـر

جـــل ما يبتغيه من   طول نجواه والسـهر

أي سر بـه يضــــيء   من الليل مـا اعتكـر

فيرى الرأي حينمـــا   خفي الورد والصـدر

أيـها الكاتب الــــذي   ينفس الشعر ما نشـر

المبيـن البليغ فــي وصف ما بان واستتر

نحن واحسرتاه جهلنا وفي جهلنا الغــرر

وعـددنا حقائـــق الدهر آفاته الكبـر

وُلد عمر فاخوري في عام ١٨٩٥ في مدينة بيروت في واحدة من الأسر البيروتية الكبيرة. تلقى مبادئ القراءة والكتابة في مدرسة "المعلم عيسى" التي كانت تقع بالقرب من الجامع العمري الكبير في وسط العاصمة بيروت. التحق بـ"الكلية العثمانية" لمؤسسها الشيخ عباس الأزهري. وكان من أساتذته في تلك الكلية الشيخ مصطفى الغلاييني، الشخصية الدينية والوطنية المعروفة. وكان من رفاقه في الدراسة الشاعر عمر حمد، أحد الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا السفاح في عام ١٩١٥. وفي تلك الكلية ظهرت بواكير وعيه القومي. كما ظهرت بواكير كتاباته في مجلتي "التلميذ" و"الزهرة" اللتين كانتا تصدران عن "الجمعية العلمية" و"جمعية الإخاء المدرسي". تخرج من الكلية العثمانية في عام ١٩١٢ متقناً اللغة العربية وملماً باللغة الفرنسية. وكانت قد تمكنت في وعيه نزعة التحرر من السلطنة العثمانية والدعوة إلى استقلال العرب وتحقيق وحدتهم وحريتهم. انتسب في عام ١٩١٣ إلى "مكتب الحقوق". ولم يبقَ فيه سوى عام واحد بعد أن أقفل المكتب أبوابه إثر نشوب الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤. لكن الكتاب أتلف. التحق عمر بعد ذلك في عام ١٩١٤ بالجامعة الأميركية وأمضى فيها عامين. انتقل بعد ذلك إلى "المكتب الطبي العثماني" لدراسة الصيدلة. وفي ذلك المعهد ظهر على المنابر العامة لأول مرة. فألقى في قاعة المكتب محاضرة بعنوان "البعثة النبوية". ومارس، إلى جانب دراسته في المعهد، التعليم في المدرسة الرشيدية والعمل في المكتب التجاري. وانتسب في تلك الفترة إلى "حزب الاستقلال" وإلى "الجمعية العربية الفتاة".

في أعقاب الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨، وبعد إقفال المكتب الطبي، مارس عمر العمل الصحفي. فكتب مقالات سياسية بتوقيع "مسلم ديمقراطي" نشرتها له جريدة " الحقيقة". وهي مقالات نقدية موجهة إلى الحلفاء. وفيها يطالب بالحرية والاستقلال للعرب. وفي عام ١٩١٩ ذهب من بيروت إلى دمشق للإلتحاق بحركة الأمير فيصل بن الحسين، الذي شكَّل حكومة استقلالية كان من المفترض أن يعلن فيها فيصل ملكاً على سوريا، قبل أن تتصدى له السلطات الفرنسية وتقضي على حركته بعد هزيمة جيشه في معركة ميسلون في عام ١٩٢٠، واضطراره إلى الفرار إلى لندن. وكان عمر قد ذهب إلى دمشق بدعوة من حكومة الأمير فيصل ليمارس الكتابة في جريدة "العاصمة" التي كانت تصدرها الحكومة الفيصلية.

بعد سقوط حكومة فيصل عاد عمر إلى بيروت، ومنها ذهب إلى باريس في عام ١٩٢٠ لدراسة الحقوق في إحدى جامعاتها، ولدراسة الآداب في جامعة "السوربون". بعد نيله إجازة الحقوق في باريس عاد عمر إلى دمشق ليمارس المحاماة في أحد المكاتب المعروفة، وليمارس كتاباته الأدبية في مجلتي "الميزان" و"المفيد". وساهم في تأسيس جمعية "الكشاف المسلم". كما ساعد في إنشاء مجلة أدبية تابعة للجمعية. في عام ١٩٢٧ انتخبه المجمع العلمي العربي في دمشق عضواً فيه. وكان قد أصبح أديباً معروفاً. توقف عن العمل في المحاماة في عام ١٩٢٩ بعد أن عُيِّن أميناً للسجل العقاري، ثمَّ مفتشاً في الدوائر العقارية في بيروت.

أصدر في عام ١٩٢٨ كتابه الثاني "الباب المرصود". وهو أول كتبه الأدبية. وقد استُقبل الكتاب استقبالاً كبيراً في الأوساط الأدبية. ثم بدأ يصدر كتبه الواحد تلو الآخر: "الفصول الأربعة" في عام ١٩٤١، و"لا هوادة" في عام ١٩٤٢، و"أديب في السوق" و"الحقيقة اللبنانية" و"الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية" في عام ١٩٤٤. وكانت قد صدرت له ترجمات لعدد من الكتب أهمها كتاب"حياة المهاتما

غاندي" لرومان رولان في عام ١٩٢٤، و"آراء أناتول فرانس" في عام ١٩٢٥، و"آراء غربية في مسائل شرقية" في عام ١٩٢٥، ورواية "كرانكبيل" لأناتول فرانس في عام ١٩٢٧، ومسرحية "الإبن الآخر" لبيار ديكورسيل في عام ١٩٢٩. ونشر في المجلات عدداً من القصص المترجمة من بينها قصة "التاريخ" لأناتول فرانس، وقصة "الساذج" لفولتير.

في ثلاثينات القرن، عشية الحرب العالمية الثانية، برزت عند عمر الميول المعادية للنازية والفاشية. وقادته ميوله تلك إلى الاقتراب من الشيوعيين في تلك الفترة بالذات. وصار صديقاً لهم من دون أن ينتسب عضوياً إلى الحزب. وشارك في عام ١٩٤١ في تأسيس جمعية العلاقات الثقافية مع الاتحاد السوفياتي مع عدد من كبار مثقفي لبنان وسوريا، وانتخب رئيساً لها. وشارك في إصدار وتحرير مجلة "الطريق" في العام ذاته، مع لفيف من أصدقائه من كبار مثقفي البلدين. وكان شركاؤه في هيئة تحريرها مؤسس المجلة أنطون ثابت وكامل عياد ورئيف خوري ويوسف ابراهيم يزبك وقدري قلعجي. كان عمر من رواد الحركة الاستقلالية في لبنان وسوريا مع عدد من المثقفين الكبار المعروفين. وترشَّح في عام ١٩٤٣ لأول انتخابات نيابية في ظل الاستقلال عن دائرة بيروت العاصمة. ولم يحالفه النجاح، لكنه كان صوتاً مدوياً في الدفاع عن الاستقلال، وصوتاً مدوياً في الدفاع عن الحرية وعن التقدم للبنان ولجميع البلدان العربية.

لم يكن عمر فاخوري كثير الكتابة. لكنه كان يصرف وقتاً كبيراً في إعداد ما كان يكتب في النقد الأدبي وفي النقد السياسي والاجتماعي. وأسَّس مدرسة خاصة به في الكتابة الأدبية اعترف بها جميع أدباء تلك الحقبة من تاريخنا العربي. حاول كتابة القصة والرواية. لكنه لم يكمل أياً منهما. وما نشر من تلك المحاولات بعد وفاته هو مثير للدهشة. إذ كانت تشير تلك المحاولات في القصة خصوصاً إلى أنه كان سيغني الأدب القصصي والروائي بروائع أدبية لو أتيح له أن يعيش سنوات إضافية. وتشكِّل

روايته"حنا الميت" التي لم تكتمل، والتي نشرت مجلة "الطريق" الفصلين المميزين منها بعد وفاته، النموذج الواضح على ما أجمع أدباء تلك الحقبة في تقييمها وتقييم منهجه القصصي فيها.

إلاَّ أنَّ عمراً لم يكتفِ بمحاولة كتابة القصة والرواية. بل هو حاول كتابة الشعر. ولم ينشر في حياته أياً من قصائده. ويبدو أنه لم يكن يرى في نفسه أنه مؤهَّل لأن يكون شاعراً، رغم أن الذين كتبوا في تقييم نثره أجمعوا على أن نثره هو الشعر الجميل بعينه، لغة أنيقة، وصوراً بديعة، وأفكاراً جديدة تقتحم الأبواب المرصودة وتفتحها من دون عناء.

أما في ميدان النقد الأدبي والبحث في التراث فقد ترك عدداً من الدراسات من دون نشر. من بينها دراسة في شعر المعري وفلسفته، ودراسة في المدنية الإسلامية، ودراسة في حركة الترجمة.

لم تتح لي فرصة التعرف على عمر فاخوري. فقد غادر الحياة وأنا بعد في أول الشباب. لكنني سرعان ما بدأت أتعرف إلى أدبه، ابتداءً من عام ١٩٤٨. وزادتني معرفة به في مطلع عام ١٩٥٠ العلاقة التي نشأت بيني وبين صديقه رئيف خوري، الذي شكَّل، بالنسبة إليَّ، مدرسة حقيقية في المعرفة الأدبية والفكرية.

كان عمر فاخوري قد أصبح بالنسبة للشيوعيين اللبنانيين منارة أدبية وفكرية وسياسية. وكان الاحتفال بذكراه السنوية مناسبة سياسية وثقافية يعبِّرون من خلالها عن آرائهم وعن مواقفهم في شؤون الساعة، ومناسبة لتجميع المثقفين حول اسم عمر فاخوري وحول تراثه الأدبي وحول قيمه الفكرية. كانت تنظَّم بمناسبة ذكرى وفاته مسيرة تتجه من المنطقة التي كانت تقع فيها مدرسة المقاصد (التي صارت على امتداد عقود منطلقاً لكل المظاهرات الشعبية) باتجاه مقبرة الباشورة حيث يرقد عمر في مثواه الأخير. وهناك كانت تلقى الكلمات التي تتحدث عنه وتنطلق من سيرته إلى تناول أحداث الساعة في البلاد.

وكان يتعاقب على الكلام فيها مثقفون شيوعيون ومثقفون ديمقراطيون غير منتمين. وبقيت أشارك في تلك المسيرات إلى أن توقفت بقرار سياسي من قيادة الحزب.

وأشهد أنني لم أتوقف عن قراءة الكتب التي كانت قد صدرت لعمر. ولم أتوقف عن ممارسة الغوص في أعماق أفكاره، الذي كانت تحفل بها كتبه ومقالاته، بما فيها تلك التي كانت تعالج قضايا سياسية آنية. وفي قراءتي لشخصيته ولسيرته بمجملها، أجزم بأنه قد أسَّس مدرسة قائمة بذاتها في الكتابة الأدبية وفي النقد الاجتماعي والسياسي. ويشكِّل كتاباه الأخيران السابقان بعامين على وفاته "أديب في السوق" و"الحقيقة اللبنانية" مرجعاً في تحديد معنى العلاقة التي تربط الأديب بمجتمعه، وفي تحديد معنى الوطنية بالنسبة إلى اللبناني في انتمائه الحقيقي إلى وطن حقيقي، لا إلى ما يشبه الوطن. ومشهورة عبارته في كتابه "الحقيقة اللبنانية": نريد وطناً لا طيف وطن.

غير أن ما أدهشني في كتابات عمر فاخوري في شكل خاص هو كتابه الأول "كيف ينهض العرب". ومصدر دهشتي ودهشة كل من قرأ هذا الكتاب هو قدرة فتى في الثامنة عشرة من عمره على امتلاك تلك الرؤية الواعية المتقدمة لواقع أمته، ولعناصر نهضتها، ولمعوقات تلك النهضة، ولكيفية تجاوز تلك المعوقات. يفتتح عمر كتابه بمدخل من بضعة سطور. ويستعير من الشاعر الفرنسي "تيودور دوبانفيل" الأبيات التالية في صيغة إهداء إلى الأجيال القادمة:

"إليكم يا من أحيي فيكم فجراً جديداً

أنتم الألى ستحبونني

إليكم يا رجال الأيام المستقبلة

بل أيتها الجيوش المقدسة!"

ويستشهد في المقدمة بالكلمات التالية لقاسم أمين: "الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر". ثم يقدم للقارئ الأسباب الداعية إلى تأليف كتابه، الذي يعطيه اسم وصفة الرسالة. فيقول:" كان للأمة العربية فيما مضى سلطان عظيم، وحضارة ومنعة لم تبق الأيام على شيء منها، إلاَّ بعض آثار فخمة، وأسفار مهمة. ولا يذكرنا منها إلاَّ تاريخ مجيد ليس من يعرفه فينا إلاَّ القليل من شر خلف لخير سلف. فهو شاحب هزيل، يعلوه الغبار، مع أنه فياض بالمآثر الغراء والفخر العميم... أحزنني هذا المنظر. وآلمت قلبي هذه الفواجع، وأنا لم أزل أخطو الخطوة الأولى من هذه الحياة. فكدت أيأس من الشفاء وصلاح الحال. فإذا بي قد رجعت إلى نفسي في هذه المدة الأخيرة فقلت: ليس الشعب العربي جثة هامدة، وليس يطلب منا إحياء العظام الرميمة، وإنما هي حركة غائرة، ونبض ضعيف، أو بالأحرى مريض يوشك أن يدخل إلى طور النزاع والاحتضار، ويمكن إنقاذه من براثن الموت وفتكاته، إذا كانت الطرق فعالة والهمم عالية".

ثم يتحدث عن آرائه في الكتاب فيقول:" آراء اقتبستها من كتب غربية لا أدَّعي عصمتها، وأفكار خاصة جرتني إليها المقارنة والمقابلة بين تلك وبين ما شاهدته! فالرسالة (الكتاب) إذن جمع وتعريب أكثر منها وضع وتصنيف. أكتب لا واثقاً من الفوز وإقبال الناس، ولكنني متأكد من أن الإنسان يستطيع، إذا أبدى إحدى بنات أفكاره، النفع ببعض قراء يطالعون ما كتبه بلذة وارتياح. ولا سعادة تعادل ما يشعر به من السعادة رجل وجد من يشاركه في معتقده... إن الأفكار بعيدة جداً عن أن تتعمم بسرعة زائدة. بل هي، بالعكس، بطيئة السير. وبمقدار بطئها تقاس درجة استحكامها في أدمغة البشر".

وينهي مقدمته بالكلمات الرائعة التالية:" لا ينهض العرب إلاَّ إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم، والمسيحيون الكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم، والبروتستانت على تقاليد "لوثر" الإصلاحية، وثوريو فرنسا في عهد "الرعب" على مبادئ

"روسو" الديمقراطية، ويتعصبون لها تعصُّب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك... هذه هي الفكرة الرئيسية للرسالة (الكتاب). أسير فيها باسم العرب دون نظر إلى معتقدهم الديني، داعياً إياهم إلى اعتناق مذهب سياسي . وإنما المستقبل للمذاهب السياسية . ألا وهي "العنصرية العربية"!".

واضح من الكتاب، ومن أفكاره، ومن نصوصه، ومن الاستشهادات الغربية فيه، إلى الأثر البالغ الذي تركته في أفكاره وفي مشروعه النهضوي، أفكار وآراء المفكر الفرنسي "غوستان لوبون".

مرة ثانية أطرح السؤال هنا عما إذا كان عمر فاخوري قد اطّلع على فكر النهضة العربية في القرن التاسع عشر، من دون أن أجد الجواب. وقد يكون أصابه اليأس، كما أشار إلى ذلك في مطلع كتابه، من جراء ما وصلت إليه الأمة العربية. فوجه نظرة إلى الغرب مثلما فعل رواد النهضة، ليجد الجواب عن سؤاله: كيف ينهض العرب؟ ويتبيَّن من سيرته اللاحقة، بعد ذهابه إلى باريس وبعد عودته منها، أنه انصرف إلى الأدب، من دون أن يتخلى عن وجهة نظر له تتصل بالأدب وبوظيفته التي من دونها يفقد هذا الأدب قيمته. وإذا كانت وجهة النظر هذه قد برزت في كتابه "الباب المرصود"، فإنها سرعان ما أصبحت في كتبه اللاحقة "الفصول الأربعة" و"لا هوادة" و"أديب في السوق" و"الحقيقة اللبنانية" مدرسة قائمة بذاتها.

أبرز ما يلفت النظر في كتابه "الباب المرصود" حديثه عن صديقه الشاعر عمر الزعني، الذي يسميه شاعر الشعب ويطلق عليه لقب "حنين". وعمر الزعني كان شاعر الشعب بحق. وكان يكتب الشعر باللهجة المحكية اللبنانية. وكان شعراً ساخراً يعبِّر بعمق عن هموم شعبه، وينتقد بعمق ممارسات السياسيين، ويكشف بجرأة وبسخرية لاذعة فضائح وألاعيب أهل السلطة في بلده.

يقول عمر فاخوري في وصف حنين وشعره، بعد أن يستشهد برأي أمين الريحاني فيه، إذ يصفه الريحاني بالمغني المربي:" يحتاج كل عصر إلى شاهد له أو عليه. وأغاني حنين هي الشهادات

الصادقة على زمن لا يؤدي أدبه المزور هذه الخدمة الواجبة. هي شهادات على العصر وعلى أهله تكشف عن عوراتها وعن مساوئها حتى ليمكن القول أن حنيناً هو دائماً من "شهود الاتهام". ولعلَّ الأصح أن يقال إنه أعظم الهجائيين بين شعرائنا! لأنه استحدث نوعاً من الشعر الهجائي هو الهجاء الاجتماعي".

وفي الفصل الذي يحمل عنوان الشعر في السوق يقول عمر:" الأدب صناعة. وإذا كانت صناعة الأدب تختلف عن سائر الصناعات في بعض الوجوه فهي تشبهها في وجوه أخرى. تشبهها من جهة أن محاصيلها، ونعني "المصنوعات" الأدبية، لا بد أن تطرح للبيع في أسواقها الخاصة، أو بالأقل تعرض على الجمهور وتقدَّم إليه خالصة بلا مقابل، اللهم إلاَّ رضاه وتحبيذه واستحسانه. وليس هذا بالثمن البخيس عند كثيرين".

ويتابع عمر تطوير فهمه للأدب ولدوره في كتابه "الفصول الأربعة"، وهو كتاب نقد أدبي رفيع، فيقول ساخراً في توصيف بعض الكتّاب:"إنَّ كثيراً من كتَّابنا هم ذلك الرجل المسيخ الذي لو قطعت شرايينه لما أخرجت إلاَّ حبراً، ولو مزَّقت لحمه لما أخذت إلاَّ ورقاً". ويتابع في مكان آخر: "والشرط الأساسي، أولاً وآخراً، هو أن يستمد الأديب عناصر فنه وأدبه من الينبوعين اللذين لا يشح سلسبيلهما أبداً، أعني الكون والحياة: كون لا تنفذ روائعه ولا تحد صوره، وحياة لن تزال متطورة متحولة، فكأنه ثابت مستمر في خلق جديد".

لكن عمراً في كتابه "لا هوادة"، ثم في كتبه الثلاثة الأخيرة "أديب في السوق" و"الحقيقة اللبنانية" و"الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية"، يصبح أديباً وسياسياً من الطراز الرفيع. إذ يرتقي فهمه لدور الأدب إلى المرحلة التي يعتبر فيها أن الأديب الحقيقي هو الذي يتعامل بفاعلية وبصدق وبأخلاق مع مجتمعه، ومع قضايا شعبه ووطنه، ومع الأحداث والتحولات التي يشهدها العالم، انطلاقاً من أن البلدان، جميع

البلدان، رغم خصوصيات قضاياها، ليست جزراً مفصولة بعضها عن بعض. بل هي مكونات بشرية تشكل جزءاً من كون واحد.

في كتابه "لا هوادة"، الذي صدر في عام ١٩٤١، أي في الفترة التي كانت قد تحررت فيها فرنسا من جيش فيشي ومن الاحتلال النازي، والتي بدأ فيها الحلفاء تقدمهم على الجبهة الشرقية، في هذا الكتاب يحدد عمر موقفه بوضوح من النازية، ويعلن انتماءه إلى الاشتراكية. ويطلق تحية إلى فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول بكلمته المشهورة "من يقل فرنسا يقل ثورة"، مذكراً العالم بتراث فرنسا الثوري، قبل الثورة الفرنسية وبعدها، وعلى امتداد قرن ونصف القرن أعقبا قيام تلك الثورة.

ويذهب في كتابه "أديب في السوق" إلى الحياة العامة من أبوابها الواسعة. وما أكثر ما يحمل الكتاب من قصص عامة وخاصة ومن أحاديث حول قضايا صغيرة وكبيرة، جعلت منه كتاباً ممتعاً للقارئ، أي قارئ من دون تصنيف. وهو يسخر في أحد فصول هذا الكتاب من الطابع الطائفي للصراعات السياسية ولانقسامات اللبنانيين على أساس طائفي. ويطرح تصوره الطموح إلى انتقال اللبنانيين إلى وطن حقيقي، في مرحلة ما بعد الاستقلال. يقول عمر:" نريد وطناً لا طيف وطن. نريد وطناً من لحم ودم. نريد وطناً يحب ذاته ويحترمه الآخرون. يعرف كيف يحب ذاته وكيف يفرض احترامه على الآخرين... لا يمكن أن يكون لبنان وطناً مسيحياً، ولا وطناً إسلامياً... لا يمكن أن يكون وطناً لأي دين من الأديان أو مذهب من المذاهب. لا يصح أ، يكون لبنان إلاَّ وطناً لجميع اللبنانيين على السواء".

ويسخر من الطائفية والطائفيين فيقول:" لقد أتى علينا زمن في لبنان، وبين الطائفة والأخرى، أو بين أبناء دين وأبناء الدين الآخر، كالحدود التي تفصل وطناً عن وطن. كدنا نحتاج إلى جوازات سفر بين الطوائف والأديان... ونحن على يقين من أن نظاماً سياسياً ديمقراطياً صحيحاً كفيل بأن يمحو تلك

الحدود الوهمية المخجلة، والمؤذية ككثير من الأوهام. ولا خسارة في ذلك على أحد، أللهم إلاَّ على نفر قليل من المستثمرين الكسالى. وأظن أن هؤلاء ليس يهمنا شأنهم. نحن بحاجة إلى ما يؤلف ويجمع، لا إلى ما يفرق ويقطع. إن الوطنية تؤلف وتجمع. إن النظام السياسي الديمقراطي الصحيح يؤلف ويجمع".

ويتابع في الكتاب ذاته حديثه عن لبنان وعن الموقع الذي يحتله في العالم كجزء منه له خصوصية تاريخية وجغرافية وثقافية. يقول عمر:"لبنان ملقى السبل المتفرقة، ومعترك الأمم المتنافسة، ومزدحم الثقافات المتقاطعة. ما من قوة في الأرض تستطيع أن تغلق ساحله الغربي، هذا الباب المفتوح على مصراعيه للأبيض المتوسط، من مدنيات وشعوب، يعطيها ويأخذ عنها، ثم يُقذف به واحة غريقة في الصحراء. كذلك ما من قوة في الأرض تستطيع أن تسلخه عن هذا الشرق السامي الذي وصلته به، منذ كان التاريخ بل قبل أن يكون، وشائج دم ولغة، وتقاليد وأساطير، وعبادات وثقافات، ثم يُقذف به جزيرة عائمة في الأوقيانوس. سيظل لبنان حيث هو وحيث كان، من الطبيعة ومن التاريخ، همزة وصلٍ بين الشرق والغرب اللذين يلتقيان فيه. وإذا صحَّ أن ثمة مستقبلاً، قريباً أو بعيداً، ليس يعرف الأثرة القومية وما يلازمها من مظاهر الطمع والفتح والغلبة، ولا التحريم الفكري وما ينشأ عنه من تعصب على اختلاف أنواعه، فقد كانت إذن ثقافة لبنان هي المثلى، ورسالته في الدنيا هي الفضلى: ثقافة تمازج، ورسالة تواصل".

كتب الكثير عن عمر فاخوري في العقود الماضية التي أعقبت وفاته. وقد أتيح لي أن أقرأ الكثير مما كتب. لكنني أشعر اليوم، وأنا أعود لقراءة سيرة عمر وتراثه الأدبي، أن علينا أن نعيد التعريف به لكي تتعرف أجيالنا إلى تلك النماذج الفذة من الأدباء، الذين عرفوا كيف يبدعون روائع في الأدب، وأن يكونوا، في الوقت عينه، إلى جانب شعوبهم في كل ما تواجهه من قضايا ومحن ومهمات من أجل الحرية والتقدم.

وأود قبل أن أتوقف عن الحديث عن عمر في هذه السطور الأخيرة، أن أشير إلى أنه كان قد تزوج في أول شبابه من إحدى قريباته سلوى، بعد أن خاضا مغامرة حب. لكن زوجته وحبيبته سلوى سرعان ما غادرته في حادثة مفجعة. إذ توفيت وهي في حالة الولادة. فعاش عمر بعد فقده زوجته فترة طويلة من الأسى والكمد، انكفأ خلالها إلى داخل ذاته لفترة من الزمن. ولم يعد إلى الزواج بعد سلوى. لكنه صادق فتاة مجرية كانت . أو صارت . تدير أحد البارات. لكنه لم يتزوجها. وقد عرَّفني عليها في مطلع الستينات من القرن الماضي صديقي الشاعر عبد المطلب الأمين. وسألتها يومذاك عن عمر فأفاضت بالحديث عنه، الحديث العامر بالحب وبالحنين.

هذا هو، باختصار، الأديب اللبناني الكبير عمر فاخوري. وتلك هي بعض سمات تطور شخصيته، وبعض نماذج من أفكاره، التي اغتنت بها كتبه القليلة العدد الكبيرة الشأن.